دول ودويلات

ملحق « المغرب » الثقافي

السنة الثانية - 11 جمادى الأولى عام 1357 الموافق 7 يوليوز سنة 1938

أراد بحاثة مؤرخ مصري أن يعلن في مجلة « الرسالة » الحافلة عن كتاب ألفه في تاريخ الشرق الإسلامي من الحروب الصليبية إلى اليوم، فذكر محتويات القسم الأول من كتابه، من جملتها درس النهضة الفارسية الصفوية وقيام دولة الترك العثمانيين ودول المماليك في مصر ودويلات المغرب.

وهكذا أصبحت العهود الإقطاعية بمصر تسمى دولا، والإمبراطوريات التي تكونت في البلدان المغربية تسمى دويلات، وهكذا تقلب حقائق التاريخ وتتغير معالمه وتطمس مآثره، فتصبح دولة عظيمة الشأن، قوية المراس، ملوكها وسلاطينها يفتخر بهم الإسلام أيما افتخار، وشخصياتها الفكرية في طالعة المفكرين المسلمين والعالميين، وقوتها كانت ترهب الجوار وتخيف الأعداء كدولة المرينيين، دويلة كأنها عصابة قبلية أغارت على بعض القرى لا يدري زعماؤها نظاما، ولا يعرفون استقرارا.

وهكذا لا ريب طوى البحاثة المصري تاريخ المغرب الحافل في صفحات أو سطور، واتهى أمر دولنا العظيمة عند هذه الصورة المشوهة، وسيصل مؤلفه إلى بلادنا، فيشتريه المثقفون ويضمونه إلى مكاتبهم وقد يطالعون وقد لا يطالعون الفصول الخاصة بدول المغرب، فأغلبهم يعرف عنها ما لا يعلمه المؤرخ المصري المحترم.

ولكن الكتاب بطبعه الفني، وأسلوبه العصري، وتبويبه المرتب، وفهارسه المتقنة، سيلفت نظر الشباب المغربي وسيطالعه، وهنا الطامة، فإن أغلب الشباب خلو من معرفة تاريخ

بلاده، وهذه الفصول من الكتاب ستؤكد له ما طالعه في كتب بلغات أجنبية عن دول المغرب وحكوماته الماضية، فإن صورها المبتورة ما تزال راسخة في مخيلته، وحوادثها المتداخلة غير المعروفة الاتجاهات المرسومة بأقلام أجنبية ما تزال تعلق بذهنه كلما ألقى بنظره إلى الوراء، فكانت مطالعته لكتاب البحاثة المصري تدعيما قويا لمعلوماته المشوهة عن ماضي أمته.

ولسنا نلوم البحاثة المصري وإن كنا نعتب عليه عتابا خفيفا لتسميته دول المغرب بدويلات، ولكن الجدير باللوم والمستحق أعنف عتاب هو المغربي الذي يترك ماضي بلاده بين أيد مغرضة من الكتاب الأجانب، وأيد لا تعرف شيئا مهما عن بلاده من الكتاب الشرقيين، فيضيع تاريخنا الحافل ويتلاشى أمره في صفحات كلها زور وبهتان.

فلنتصور البحاثة المصري وقد قصد دار الكتب المصرية ليتصفح المصادر ويستجمع المواد فوقف به السير إلى تاريخ المغرب فأى المصادر يجد أو على أي المؤلفات يعثر؟ إذا استثنيت بعض مؤلفات طبعت في العهد الماضي عن تاريخ المغرب في مطابع مصرية ومؤلفات طبعت في مطبعة فاس الحجرية لا تقرأ في الشرق، فإنه لا يجد إلا المؤلفات الأجنبية عن المغرب وأغلبها كما علمت مغرض الاتجاهات ملتوي الاستنتاجات.

إذن فالمسؤولية لا تلقى إلا على المغاربة المثقفين الذين لم يؤلفوا فحسب بل لم يبذلوا مجهودات قويمة في طبع ما تحويه خزائنهم الخاصة والعامة من ذخائر عن ماضيهم فكان هذا الإهمال سببا مباشرا لما يصيب تاريخنا من عقوق شبابنا وتعريض الأجانب به، فتسمى دولنا العظيمة دويلات وتجهل مفاخرنا الخالدة لدى جيل جديد.